عظماء قهروا اليأس

عمر مكرم

يوسف الحمادي

مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

السيد عمر مكرم

بقلم

يوسف الحمادى

الناشر

مكتبة مصر

١ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

(١)

أسرته وحياته الأولى

مر تاريخ مصرَ الحديثُ بطفولةِ عمر مكرم مرًّا خاطفا ، فلم يكد يقفُ بنا عندها ، ولم يحدِّثْنا عنها كما حدثنا عن طفولةِ غيره من أبطال النضال المصريِّ فى العصر الحديث ، وتركَنا ونحن لا نعرفُ شيئاً عن يوم مولده ، أو شخصيةِ أبويه ، أو الأحداثِ التى مرت به فى صغره ، فتركت « بصماتِها » عليه ، وكان لها أثرُها فى تكوين أخلاقِه وشخصيتِه .

ويبدو أن هذا التاريخَ حين عرفَه وجده نجماً لامعا ، فى وقتٍ كانت سماءُ الوطنيةِ المصريةِ فيه شبهَ خاليةٍ من النجومِ اللامعةِ ، فدَهِش لهذا النجم ، واتجه إليه بكل عينيه وقلبِه ، وراح يسجلُ كلَّ شيءٍ عنه ، وفى غمرةِ[1] اهتمامه به نَسِيَ أن يحدِّثَنا عن تفاصيلِ حياتِه الأولى أو يتمهلَ بنا عندها .

وكل ما ذكره الدارسون له من خطراتٍ عن هذه الحياةِ أنه كان أسيوطيًّا ، وُلِدَ ونشأ فى أسيوطَ عاصمةِ الصعيد ، وأن مولدَه فى نحو سنة ١٧٥٢ من الميلاد ، وأنه سليلُ أسرةٍ من أسرِ الأشراف التى تحتفظُ بنسَبِها ، وتعتزُّ به ؛ لأنه ، فيما تذكر ، يَصِلُها بالنبيِّ ﷺ ، وآلِ بيتِه الأصفياءِ[2] الأطهار .

وهذه المعارفُ ، على قِلتِها ، تلقى الأضواءَ على حياتِه الباكرةِ ، فتكشفُ لنا عن جوانِبها العامةِ وخطوطِها العريضة ، وإن لم تكشفْ لنا عن جوانِبها الخاصةِ وخطوطِها الدقيقةِ ؛ وذلك لأن الحياةَ على عهدِه الذى وُلِدَ ونشأ فيه كانت يسيرةً ، متشابهةً ، لا عمقَ فيها ولا تعقيد .

---

(١) غمرة : شدة .　　(٢) الأصفياء : المختارين .

ولعل أوضحَ وأقربَ ما يصورُ لنا حياتَه فى صغرِه أنه وُلِد مع أواخرِ العصرِ العثمانىِّ فى مصر ، وهو عصرٌ من عصورِ الظلامِ التى مرت بها ؛ فقد كانت فيه ولايةٌ عثمانيةٌ ، تخضعُ لخليفةِ المسلمين فى تركيا ، ويحكمُها والٍ من قِبَله ، همُّه أن يسخِّرَ[١] أهلَها له ، بالحسنى إن أطاعوا وانساقوا كما ينساقُ القطيع ، وبالسوطِ والسيفِ والنارِ إذا عَصَوْا أو تمردُوا على العسفِ والطغيان .. وربما وقعت عينُ الطفل عمر مكرم على بعضِ الفلاحين ، وقد ربطهم جنودُ « السنجقِ[٢] » التركى بالحبالِ ، وجرتهم الخيلُ إليه ، وهم يتعثرون ويصرخون ، أو وقعت عينُه عليهم والسياطُ تنصبُّ فوقَ ظهورهم ؛ لأنهم عجزوا عن دفعِ الضرائبِ ، أو تأخروا فى أدائِها .. فرقَّ قلبُ الطفل لحالِهم ، وانسكبت عبراتُه[٣] لمنظرهم الحزينِ الذى يدلُّ على الذلة ، واليأسِ من تحطيمِ قيودِهم والتحررِ منها .

وأغلبُ الظنِّ أنه حين وعى وشبَّ أدرك فى أعماقِه أن الناسَ حوله طبقاتٌ ، فالوالى العثمانىُّ ، أو الباشا ، أو ولىُّ النِّعمِ فى القمةِ ، وفى منزلةٍ أسمى من الناسِ جميعا ، ودونه أُمراءُ الجيشِ من الأتراك والمماليك ، يليهم أتباعُه وأعوانُه ، أما القاعُ[٤] فللفلاحين الكادحين الذين يزرعون ويعملون ، ليجنىَ غيرُهم ثمرَةَ عملِهم ؛ فهم دافِعُو الضرائب ، ومن دمهم تُجبَى الأموالُ الباهظةُ[٥] التى ترسَلُ للخليفةِ فى تركيا ، أو ينفقُ منها الوالى وأتباعُه عن سعةٍ وبغيرِ حساب .. ولعل الطفلَ لم يحس آلامَ هذه الطبقيَّةِ كما أحسَّها الفلاحون من حولِه ؛ لأن الأتراكَ العثمانيين كانوا يعطفُون على أسرِ الأشراف ، تقرباً إلى النبىِّ الكريم

---

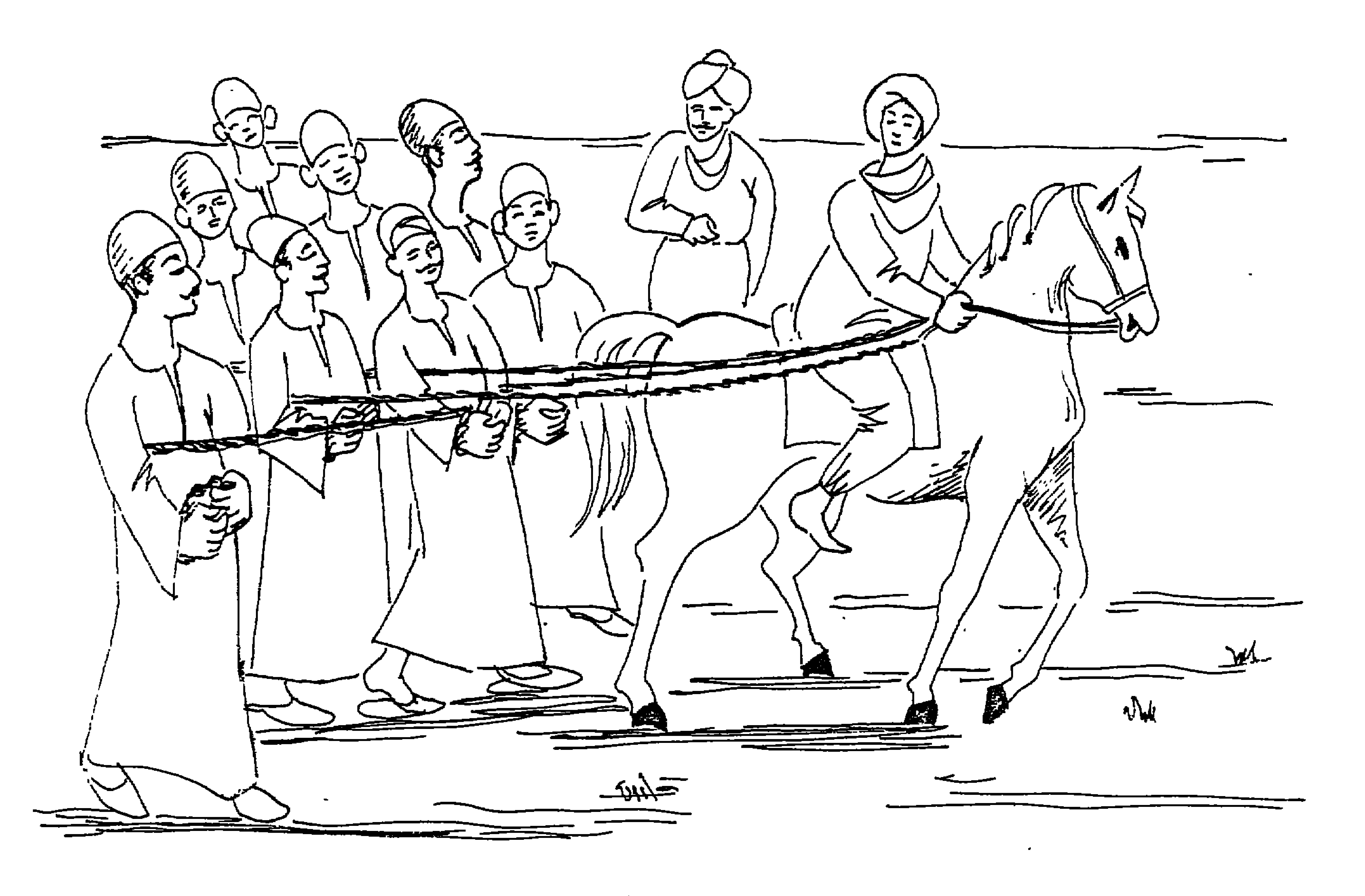
(١) يسخر : يستخدم .

(٢) السنجق : لقب تركى لبعض رؤساء الشرطة .

(٣) عبراته : دموعه .

(٤) القاع : الأرض ، والمراد أسفل مكان .

(٥) الباهظة : التى تثقل الشعب .



الفلاحون يساقون إلى السنجق
تجرهم الخيول ، وهم مربوطون بالحبال

الذى تنتسبُ إليه هذه الأسَرُ ، ورغبةً فى أن يتخذوا منها ألسنةً تدعو لهم ، وتشدُّ قلوبَ الناس إليهم .

على هذه الصورةِ كانت حالُ مصرَ من حول الطفلِ عمر مكرم ، أما أسرتُه فكانت ، كغيرِها من أسرِ الأشرافِ المحافِظةِ ، تعيشُ عيشةً متميزةً شيئاً ما .. تحرصُ على حسنِ الصلةِ بالحكام ؛ لتعيش فى جوارِهم عيشةً هادئةً ، وتتوسطَ لديهم فى ردِّ الظلمِ عن الناس ، وتجاملُ من يحيطون بها لتكسبَ حسن الأُحدوثةِ بينهم ، وتبرُّ الفقراءَ والمساكين فتحسنُ إليهم بما استطاعت من مالٍ ، أو كلمةٍ طيبةٍ ، أو سعيٍ حسن ، رحمة بهم ، ورغبة فى أن يعلوَ قدرُها فى عيونِهم ، وتحرصُ ، بعد ذلك ، على أن تسلُكَ فى حياتِها سلوكاً دينيًّا مستقيماً ؛ حتى لا تخدِشَ نسبَها ، ولا تهبط بمكانتها الدينية .

فى مثلِ هذا الجوِّ وُلدَ الطفلُ عمر مكرم ، وعاش طفولتَه ، فتأثر به ، واصطبغ بصبغتِه ، كما تدلُّ على ذلك حياته فى كِبَرِه .. كان سويَّ[1] النفسِ ، خالصاً من آثارِ الذلةِ والقهرِ التى تشوهُ نفوسَ البائسين اليائسين من أبناءِ الشعب ، وكان جادًّا طموحاً ، يعملُ ، ويصممُ ، ويحرصُ على أن تكونَ له مكانةٌ كريمةٌ فى قومه ، كما كان اجتماعيًّا ، يحب الناسَ ، ويرغبُ أشدَّ الرغبةِ فى إسداءِ[2] الخيرِ إليهم ، ودفع الضرِّ عنهم .

ولعل أسرتَه فكرت ، فاقتنعت بأن مثلَه ينبغى أن يتعلمَ ؛ لأن له هذه الصفات ، ولأن فيه من مخايِلِ النجابةِ[3] والذكاءِ ما يُبشِّرُ بأن له شأناً فى مستقبلِه .. وكان من الطبيعيِّ أن تفكِّرَ فى إلحاقِه بالأزهر ؛ لما به من علومٍ دينيةٍ

(١) سويّ : مكتمل .

(٢) إسداء : تقديم .

(٣) النجابة : كرم الوراثة والنشأة .

تلائم نسبَه ، ولما لأبناءِ الأزهر الأفذاذِ[1] من مكانة بين الخاصة ، وجلالٍ فى عيون العامةِ من أبناءِ الشعب .

ولم يخيِّبِ الطفلُ أملَ الأسرةِ فيه ؛ فقد حفظَ من القرآنِ الكريم ، وحصَّلَ من ميادينِ العلومِ فى أسيوطَ ، ما أهَّلَه للانتظامِ فى هذا المعهد ، وما هيأ له أن ينتقلَ إلى القاهرةِ ليكونَ طالباً من طلابِه .

(١) الأفذاذ : الذين لا نظير لهم .

(٢)

عمر بين الأزهر والحياة الاجتماعية

سافر عمر مكرم إلى القاهرةِ ، ليلتحقَ بالأزهرِ : أمنيتِه وأمنيةِ أسرتِه ، فكانت انتقالتُه إليه بدءَ مرحلةٍ جديدةٍ من مراحلِ حياتِه العامرةِ بالعمل والكفاح .

غادرَ أسيوطَ ، فترك مدينةً صغيرةً ، محدودةَ الحيويةِ والنشاط ، قليلةَ المؤسساتِ الثقافية ، بها مزيجٌ من حياةِ الريفِ وحياةِ الحضر ، وتحولَ إلى أعرقِ(١) وأضخمِ مدينةٍ فى بلادِه ، بل فى كثيرٍ من بلادِ الدنيا فى عصرِه ، وهى القاهرة . نزلَها فزاغَ بصرُه فترةً غيرَ قصيرةٍ بين شوارعِها ومآذنِها ، وقصورِها ومحالِّها ، وأحيائِها الممتدةِ هنا وهناك ، وأضوائِها التى تسطعُ فى الليلِ ، لتعيدَه نهاراً للساهرين الذين يعملون ، أو يقطعونَ الوقتَ على أنغامِ الربابةِ وأصواتِ شعرائِها .. وظل كذلك فترةً ، حتى أَلِفَ هذه الحياةَ الجديدة ، واندمج فيها .

وانتظمَ الدارسُ الجديدُ بين طلابِ الأزهر ، فجلسَ على سجادِه وحصيرِه ، يتحركُ بين أعمدتِه ، وينتقلُ بين مشايخِه ، منهوماً(٢) بما يتلقى من العلمِ ، حريصاً على أن يستمعَ ، ويفكرَ ، ويناقشَ ، ويعِىَ ما حصَّلَ فلا يضيِّعَ منه شيئاً .. وأفادته دراستُه فى الأزهر ، فهيأت له حياتَه الجديدة ، أو هيأته لحياتِه الجديدة .

أمدته بقدرٍ دسِمٍ(٣) من العلومِ الدينيةِ واللغويـة ، كالفقـهِ والتفسيرِ والحديثِ والنحوِ وعلومِ اللغة ، وغيرِها مما يغذى به الأزهرُ طلابَه .

---

(١) أعرق : أقدم.　(٢) منهوما : مولعا.　(٣) دسم : مغذ.

وغرست فى أعماقِه حبَّ القراءةِ والرغبةَ الملِحَّـةَ(١) فى أن يعلِّـمَ نفسَه بنفسِه ، فأقبلَ على شراءِ الكتب ، واقتنائِها ، وعُنِىَ بجمعِها والمحافظةِ عليها ؛ حتى تجمعت له منها مكتبةٌ خاصةٌ ثمينةٌ وكبيرة ، أُهدِىَ بعضُها بعدَ موتِه لدارِ الكتبِ المصرية ، فكان له بها ركنٌ يحمل اسمَه ، وينهضُ تَذكاراً عَطِراً ، يذكّرُ القارئين والزائرين لهذه الدارِ حياةَ صاحبِها ومكانتَه العلميةَ والثقافية .

ومما ضمته هذه المكتبةُ ، وأبان عن ثرائِها(٢) ، وثقافةِ صاحبِها : كتبُ التاريخِ ، والفلسفةِ ، والسياسةِ ، والاجتماعِ ، وغيرِها من الكتبِ الإنسانية . وهذه الكتبُ إن دلت على شيءٍ فإنما تدلُّ على أنه لم يكن محدودَ الفكرِ ، ولا ضيقَ الأفُقِ ، ولا محصورَ النشاطِ فى نطاقِ الدراساتِ الدينيةِ واللغويةِ ، بل كان يريدُ أن يندمجَ فى مجتمعِه ، ويصبحَ فيه عنصراً مؤثراً وفعالا ؛ لهذا تسلَّحَ بسلاحٍ من العلوم التى تعينُ على فهم هذا المجتمع ، وعلى معرفةِ تياراتِه ، وتفسيرِ اتجاهاتِه وأحداثِه .

وكذلك أتاحت له دراستُه الأزهريةُ القدرةَ على الحديثِ ، والنقاشِ ، والخَطَابة ، وهيأت له امتلاكَ وسائلِ الإقناعِ والتأثير التى تشد النـاس ، وتجتذبُ الأسماعَ والقلوب .

وبهذه الأسلحةِ ، مع سلاحِ نسبِه الشريف ، استطاع أن يدخلَ فى غِمارِ(٣) المجتمع ، ويصعدَ سريعاً فى سلَّمِ الرقىِّ به ، وكان الطريقُ الذى سلكه طريقاً طبيعيًّا ، واضحاً ومستقيماً ؛ فقد تحدَّى الأسرَ التى تدَّعِى الانتسابَ إلى البيتِ النبوىِّ الكريم ، ونافسَها فى الوصولِ إلى منصبِ نقيبِ الأشرافِ ، وكان على قمةِ هذه الأسَرِ أسرةُ البكرىِّ وأسرةُ السادات ، واشتدت المنافسةُ واحتدمَ(٤)

(١) الملحة : الشديدة .

(٢) ثرائها : ازدحامها بالكتب .

(٣) فى غمار المجتمع : فى وسطه وبين شدائده .

(٤) احتدم : التهب .

الصراعُ ، ولكن الناسَ وأولى الأمرِ انحازوا إلى جانب عمر مكرم ، وبهَرهم علمُه ، وقدراتُه ، وروحُه النقيةُ الشفافةُ ، وطبيعتُه المعطاءُ ، وشخصيتُه التى تجمعُ بين الطابَعِ الأزهريِّ الدينى والطابَع الاجتماعيِّ العام ؛ حتى كان بعضُ الناسِ ينادونه بلقبِ « الشيخ » ، لعلمِه الأزهريِّ ، ويناديه بعضُهم بلقبِ « الأفندى » ، لثقافتِه الاجتماعية ... وأخيراً خمدت المنافسةُ ، واختِيرَ عمر مكرم نقيباً لأشراف مصر بغيرِ منازع ، فتألق[١] نجمُه ، وعلا صيتُه ، وعُرِف بين القادةِ الدينيين فى مصر ، وأصبح يخاطَبُ باسم « السيد » عمر مكرم .

ومنذ أن وَلِيَ هذا المنصِبَ كان عليه أن يلتَصِقَ بالناسِ ، ويشدَّهم إلى الطريقِ الدينيِّ الذى يحملُ رايتَه ، ويدعو إليه .. وكان عليه كذلك أن يقفَ بينهم وبين الحكامِ كالدرعِ ، يردُّ عنهم ما يتعرضون له من عسفٍ وظلمٍ ، ويحركهم ليتخلصوا مما هم فيه من يأس وظلام .

وقد نهض عمر مكرم بمهامِّ منصبِه على خير وجه ، وأدَّى ما عليه لربِّه ، ووطنِه ، ومريديه الذين يحبونه ويتعلقون به .

---

(١) تألق : لمع .

(٣)

وقفته فى وجه المماليك

كان السيد عمر مكرم يعيشُ عيشةً راضية ، ولكن الآلامَ كانت تعتصرُ قلبَه ؛ لما يرى حولَه من مآثِم ومظالِمَ تنصبُّ على المعذَّبين الكادحين من أبناءِ مصرَ فى أنحاءِ الوادى الكبير ؛ فالوالى العثمانىُّ يحكمُ البلادَ للخليفةِ فى تركيا حكماً استبداديًّا ، يقوم على الاستماعِ له بغيرِ نقاشٍ ، وطاعتِه دونَ معارضةٍ ، وتنفيذِ أوامرِه فى وقتِها وبلا تباطؤٍ أو امتناع .. وجرائمُ جنودِه وأذنابِه تجرى فى ظلِّ هذا الاستبدادِ كالسيلِ لا تفترُ ، ولا تتوقف .

المحتسبون المشرفون على الأسواقِ يؤزُّون[١] الجندَ ، فيهجُمون فى عنفٍ ووحشيَّةٍ على التجارِ ، ويجرُّونَهم إليهم كما تُجَرُّ الأنعامُ ، متذرعين بأنهم تأخروا عن أداءِ الأموالِ المفروضةِ عليهم ، فإذا انتحَوْا بهم جانباً ، وملئوا أيديَهم بالرِّشوةِ منهم تركوهم وأطلقوا سراحَهم .. والملتزمون الذين يجمعون الضرائبَ يأمرونَ أتباعَهم فيربطون الفلاحين بالحبال ، ويسحبونهم وراءَ الخيول ، ليعذَّبُوا ، ويُسجَنوا ، أو يَدْفَعُوا الرِّشوةَ ، ويؤدوا الضرائبَ ، ولو كانت فادحةً أو كانوا عاجزين عن أدائِها ؛ لأن النيلَ أخلفَهم أو لأن الآفاتِ قضت على زروعِهم وثمارِهم ، ورجال الحكومةِ يعاملون أبناءَ الشعبِ كأنهم العبيدُ ، فإذا رفع أحدُهم رأسَه ، أو ردَّ إساءَةً وُجِّهت إليه ، أو أَبَى أن يقدِّمَ فروضَ الطاعةِ كان جزاؤُه ما لا يُطاقُ من النكالِ[٢] .

وكثيراً ما لجأ هؤلاء المعذَّبون من أبناءِ الشعب ، فى الليلِ أو النهارِ ،

---

(١) يؤزُّون : يحرضون .   (٢) النكال : العذاب .

إلى نقيبِ الأشراف السيد عمر مكرم ، فعمِل ما استطاع على إنصافِهم ، ورد المظالِمِ عنهم .. أو ركنوا إلى اليأسِ ، فحركهم ليخرجُوا من يأسِهم ، ويُطالبُوا بدفعِ الظلمِ الذى لحق بهم .

ولم تتوقفْ هذه المظالمُ أو تتناقصْ ، بل استمرت ، وتزايدت ، مع تياراتِ الخلافاتِ ، ومع المنازعاتِ التى لم تكن تنقطع ، بين الوالى والمماليك ، أو بين المماليك بعضِهم مع بعض .. فقد كان الوالى يرى أن المماليكَ ليسوا أكثرَ من أتباعٍ له ، أو أعوانٍ خاضعينَ لأمره ، وكان المماليكُ يرون أنهم أصبحوا قوةً ، من حقِّها أن تحكمَ وتسيطرَ .. ولم يترددوا أو يتباطئوا ؛ فقد ظهر من بينهم مملوكٌ كبيرٌ ، هو مراد بك الذى تمرَّدَ على الوالى ، وأعلن عزلَه والانفرادَ بالحكم دونه .

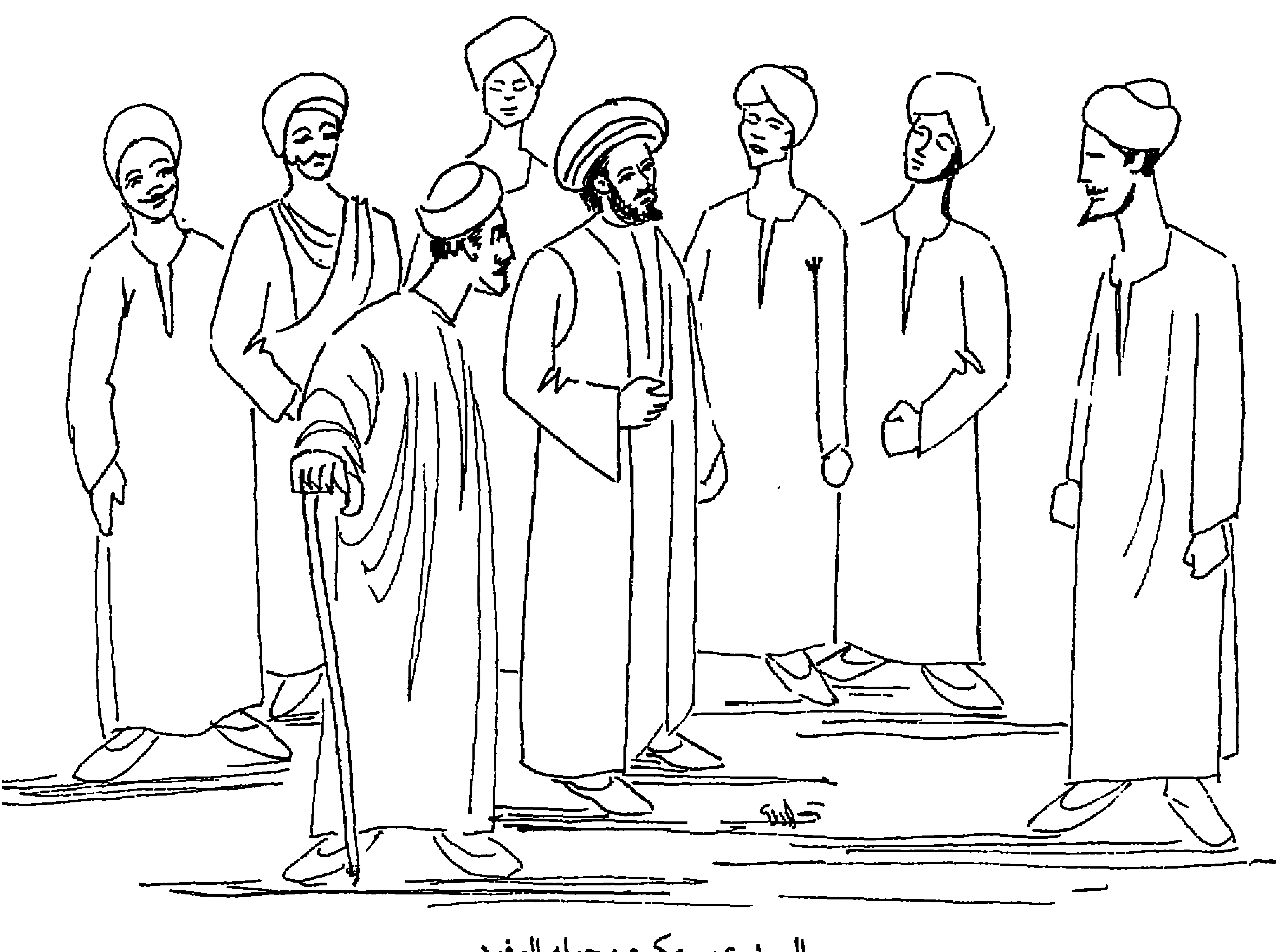
وخلصَ له الأمرُ فترةً ، ثم نازعَه فيه مملوكٌ آخَرُ هو إبراهيم بك ، وشبَّت بينهما معاركُ عنيدةٌ ، ثم عادا ، فاتفقا على اقتسامِ السلطانِ ، وتوزيع مناطق النفوذِ بينهما .. وخلالَ صراعِ هذين المملوكين كانت تُنتزَعُ الأموالُ والأقواتُ بغير هوادَةٍ(١) ؛ ليُدْفَعَ بها إلى المتحاربين هنا وهناك . وبعد اتفاقِهما زادتِ الحالُ سوءًا ؛ لأنهما ترضَّيا الوالىَ ، ثم اصطلحا على الشعبِ ، وعَمِلا على جمعِ الأموالِ من الناسِ بحق وبغير حق ، دونَ اعتراضِ أحدِهما على مظالِمِ الآخر ؛ وبذلك ثقُل عبءُ التصدِّى والدفاعِ على السيد عمر مكرم ، ولكنه نذر وقتَه ومالَه وحياتَه لرفع الظلمِ عن كاهلِ الشعب ، أو تخفيف ثقله ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومن مواقفِه المشرِّفةِ فى هذا الصددِ(٢) : أن أحس مراد بك وإبراهيم بك

---

(١) هوادة : لين .

(٢) فى هذا الصدد : فى هذه الناحية .



السيد عمر مكرم وحوله الوفود
ترجو أن يستشفع لها

بأن الأمرَ خلَصَ لهما ، فأسرفا فى زيادةِ الضرائبِ ، وأمعنا(١) فى جمعِها بالقوةِ القاهرةِ ، فصرخ الشعبُ ، واستنجدَ بقادتِه من أبناءِ مصر ، فهبُّوا لنجدتِه ، وفى مقدَّمتِهم السيد عمر مكرم وشيوخُ الأزهر .

وبدأ الشيوخُ المواجهةَ ، فأضربوا عن إلقاءِ الدروسِ ، ودعَوْا أصحابَ الحوانيتِ إلى إغلاقِها فأغلقوها ، ثم ساروا فى موكبٍ ناقمٍ ساخطٍ إلى بيتِ الشيخِ السادات ، واجتمعوا به ، ليلتقوا على كلمةٍ واحدةٍ فى شأنِ هذين الحاكمين الغاشمين ، ومن روادِهم عمر مكرم .

اضطرب إبراهيمُ بك ، وخَشِيَ العاقبةَ ، فأرسلَ مندوباً له ؛ ليترضَّاهُم ، ويرجعَهم عن موقفِهم ، ولكنهم أبَوْا ، وأصرُّوا ، فأخذ يحاورُهم ، قال :

— ركزوا مطالبَكم .

قال قائلهم :

— مطالبُنا محددةٌ : رفعُ المظالمِ عمَّن أصابتهم المظالم . إبطالُ ما زيدَ من مُكوسٍ(٢) وضرائب . الحكمُ بما أنزل الله والتزامُ حدود الشرع والعدل .

أجاب المندوب :

— ذلك كثيرٌ ! لا يمكنُ إجابتُكم إلى ما تطلبون ؛ فإننا إن فعلنا ضاقت علينا المعايش .

ردَّ قائلُهم :

— هذا ليس بعذرٍ عندَ اللهِ ولا عندَ الناس . هناك ما تستطيعون أن تتخففوا منه .

قال :

— ومِمَّ نتخفَّف ؟

---

(١) أمعنا : بالغنا .　　(٢) المكوس : ما يجبى من أموال .

فأجاب :

— من النفقاتِ الباهظةِ ، وشراءِ المماليك ! إن الأميرَ إنما يكونُ أميراً بالعطاءِ لا بالأخذ .

* * *

غضِبَ مندوبُ إبراهيم بك ، لكنه كظمَ(١) غيظَه ، واشتعل الموقفُ ، وعلَتِ الأصواتُ ، وتجمهرَ الناسُ حولَ القادة ، واتجه الركبُ الفخمُ الضخمُ إلى الأزهرِ ، حيث اعتصموا جميعاً به ، وباتوا فيه .

وإذ ذاك ارتعدَ مراد بك وإبراهيم بك ، وخفَّا إلى الأزهرِ ونزل كلٌّ منهما عن كبريائِه ، فأخذ يلاطفُ القادةَ ، ويمُدُّ إليهم يدَ التفاهمِ والمصالحةِ ، ولكنهم كانوا عند كلمتِهم ، لا يتزحزحون عنها .

إذ ذاك أقبل الوالى نفسُه إلى قصرِ إبراهيم بك ، حيثُ تحولَ المجتمعون نحوه(٢) ، فالتقَوْا به ... وكان اجتماعاً مهيباً رهيباً ، حضره الوالى ، ومراد بك وإبراهيم بك ، وأمراءُ الجند ، كما حضَرَه ممثلو الشعب : السيد عمر مكرم ، والشيخُ السادات ، والشيخُ الشرقاوىُّ ، والشيخُ البكرىُّ ، والشيخُ الأميرُ ، والقاضى .

ودار الحوارُ ، وطال الأخذُ والرد ، وأخيرا نزل الوالى والمماليكُ على رأيِ قادةِ الشعب ، فأعلنوا بين أيديهم معذِرَةَ الظالمين منهم ، ورجوعَهم عن ظلمِهم ، ثم انعقد الصلحُ على : رفعِ ما أُحدِثَ من مظالمَ ، وإلغاءِ ما زيدَ من مكوسٍ وضرائبَ ، والكفِّ عن النَّيلِ من أموالِ الناس بغير حق ، وإعادةِ أموالِ الحرمين الشريفين ، والسير فى الناسِ سيرةً حسنة .

وكتب القاضى وثيقةً بذلك ، وقَّعها المجتمعون ، وعند توقيعِها نظر

(١) كظم : كتم .

(٢) تحول المجتمعون نحوه : اتجهوا إليه .

مراد بك إلى السيدِ النقيب فى عَتْبٍ ، وكانت بينهما معرفةٌ وصداقة ، وكأنه يقولُ له :

« أين صداقتنا ؟ وكيف تقفُ مع عامةِ الناسِ فى وجوهِنا ؟ ولكنه عادَ فأكبرَه وقدَّرَه ، وعرف أن وطنَه عنده فوق كل صداقةٍ ، وأغلى من كل صلة » .

ورجع القادةُ بين هُتافِ الجماهير ، وبين التصفيقِ والتهليلَ والتكبيرِ ، والفرحةُ بالانتصارِ على كل وجهٍ وفى كل قلب .

ومنذ ذلك الحينِ أصبح السيد عمر مكرم من زعماءِ النضال الذين قهروا اليأس فى القلوب ، وعلَّمُوا أبناءَ مصرَ أن يغضبوا لأنفسِهم وكرامتِهم وحقوقِهم ، فيثوروا لها ، ويعملوا ما استطاعوا على الحفاظ عليها والدفاعِ عنها .

(٤)

النقيب والفرنسيون

مضى السيد عمر مكرم فى عملِه وحياتِه ، وكلُّ يومٍ يمرُّ به يزيدُ من حبِّ أبناءِ وطنِه له ، ومن حبِّه لأبناءِ وطنه .. فقد وجدَ منهم أصفى الوفاءِ وأنبلَه وأرسخَه ، ووجدوا فيه أقوى درع تردُّ عنهم عادياتِ العثمانيين والمماليك ، وأسخى[1] يدٍ تعطيهم بغير حدود ... كان يعطيهم من أعصابه التى تحترقُ وهو يحاولُ إنقاذَهم من فوضى الصراعِ فى ظلِّ هذا الحكم الغاشم ، ومن قلبِه الذى يتميزُ غيظا إذا لم يتسع جهده لكى يأسُوَ[2] كلَّ جراحِهم وآلامهم ، ومن وقتِه الذى جعلَه وقفاً على العملِ لخيرهم وإسعادهم ، ومن مالِه الذى أنفقه على ذوى الحاجة منهم بغير حسابٍ ، ومن روحِه التى حملَها على كفِّه ليضحىَ بها فى سبيلِ حياتِهم وحياةِ مصر إذا دعا الداعى للتضحيةِ والفداء .

وبينما الأيامُ تمضى به ، وهو يستكثرُ على وطنِه ما يعانى فى داخلِه من مظالمَ ونكباتٍ ، اصطدمت نفسُه بمأساةٍ جديدةٍ ، بعيدةٍ عن الأذهان ، جاءتها من خارج البلاد ..

وصل أسطولُ نابليون بونابرت إلى ثغرِ الإسكندرية ، فى أولِ يوليه سنة ١٧٩٨ ، يريدُ أن يحتلَّ مصر ، ويجعلَ منها مستعمرةً فرنسيةً ، يتألَّقُ[3] بها سجلُّ مجدِه العسكريِّ ، وتزدادُ بها عظمةُ بلاده ؛ إذ يتسعُ مُلكُها ، وتسيطرُ على ملتقىَ القاراتِ الثلاثِ ، وينفتحُ لها الطريقُ إلى كنوزِ الشرق وخيراته .

---

(١) أسخى : أكرم . (٢) تأسو : تداوى .
(٣) يتألق : يلمع .

وفى اليوم التالى ، الثانى من يوليه سنة ١٧٩٨ أصبح الصباحُ ، وأصبح معه الفرنسيون ، كما يقول المؤرخون ، كالجرادِ المنتشرِ حولَ الإسكندرية ، وكان حاكمُها السيد محمد كريم يتوقعُ هذا الغزوَ ، فبادر حين رأى السفنَ فى عُرضِ(١) البحر بإذاعةِ النبأ ، وإبلاغِه لمراد بك كبير المماليك ، كتب إليه يقول :

« إن العمارةَ(٢) التى ظهرت فى هذا اليوم لا يُعرَفُ أولُها من آخرِها » .

ولكن المملوكَ المغرورَ قابل النبأَ بالسخرية ، وقال لمن حوله :

« يكفى أن نرسلَ إليهم بعضَ فرسانِنا ليطردوهم ، وتسحقَهُم خيلُنا تحت سنابكِها(٣) » .

وأبطأ مددُه ، فتابعَ السيد محمد كريم الكتابةَ إليه ، وألهب أهلَ الإسكندريةِ ، فدافعوا عن مدينتِهم دفاعَ الأبطال ، واعتصم هو بقلعةِ « قايتباى » وظل يقاتلُ بها حتى أصبحت المقاومةُ عبثاً لا جدوى له ، فاستسلم ..

كان السيد عمر مكرم يرقبُ حركةَ الزعيمِ الإسكندرىِّ باعتزازٍ وزهو ، وحركةَ مراد بك واستهانتَه بأسًى وخوفٍ .. وصحَّ ما خاف أن يحدُثَ ؛ فقد استولى نابليونُ على الإسكندريةِ ، وتقدَّمَ منها إلى القاهرة . عندئذ صحا مراد بك ، فلقيَه بجيشِه وسفنِه فى « شبراخيت » ، ولكنه هُزِمَ ، وتراجعَ ، ليتحصن فى إنبابةَ ، ويتصدى فيها لجيش « نابليون » ، فيصدَّه إذا استطاع .

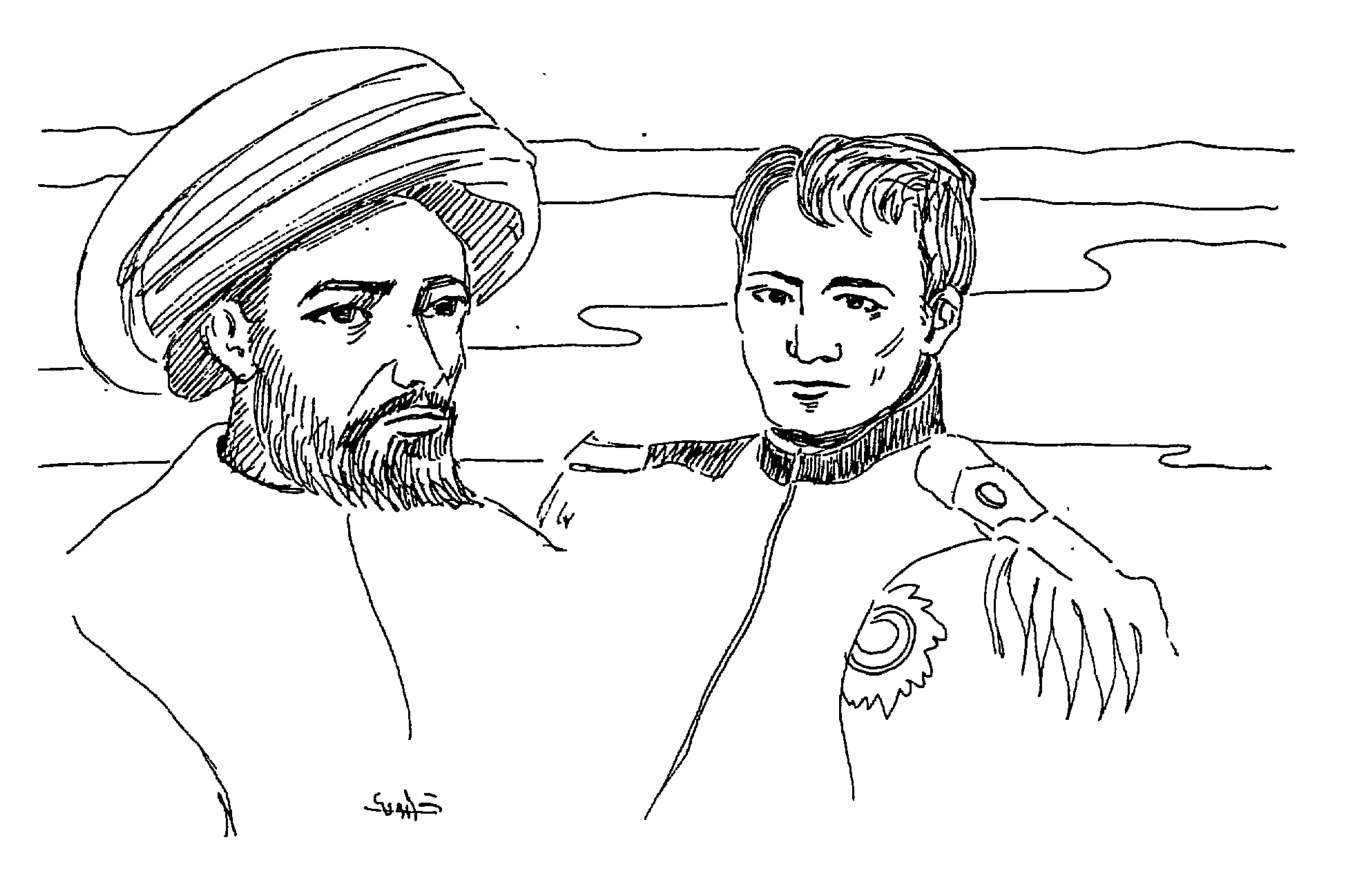
وقبيلَ الموقعةِ ، وفى السابعَ عشرَ من يوليه سنة ١٧٩٨ هبَّ الزعيمُ الشعبىُّ السيد عمر مكرم ليدافعَ عن القاهرة ، فالتف به الفقراءُ وقد نفضوا عنهم غبار الذلة واليأس ، وسرى الأمل إلى قلوبهم ، وذهبوا معه إلى القلعةِ بالطبولِ والمزاميرِ والأعلامِ والكاساتِ(٤) ، كما يقول المؤرخون ، وكانوا يضجُّون ،

---

(١) عرض : ناحية .   (٢) العمارة : المراد السفن بمن فوقها .

(٣) السنابك : أطراف الحوافر .

(٤) الكاسات : جمع كاس ، والمراد هنا الكاسات التى يضرب بها مع نقر الطبول .



نابليون والسيد عمر مكرم يتحاوران

ويصيحون ، ويذكرون بأذكارٍ مختلفة ، وهناك صَعِدَ السيد عمر مكرم فى القلعةِ ، وعاد ومعه « بيرق[1] » كبيرٌ ، يسمونه « البيرق النبوىَّ » ، وسارَ به إلى « إنبابة » ، والناسُ من حولِه ، يشعلون الحماسةَ فى القلوبِ ويثيرونَ الجموعَ ؛ ليزحفُوا إلى الفَرنسيين ، هم وجنودُ مراد بك ، فيطردوهم من أرض مصر . ولكن أسلحةَ الفرنسيين كانت أحدثَ وأقوى ، فارتعد مراد بك ، وفرَّ مع جمعٍ من رجالِه إلى الصعيد ، وقد اصطحبوا معهم ما خفَّ حملُه ، وغلا ثمنُه ، من أموالٍ وكنوزٍ وذخائرَ وعتاد .

سَخِرَ السيد عمر مكرم من مراد بك ، وضَحِكَ ضِحْكَةً حزينةً مدوِّيةً من هذا المملوكِ الغادرِ ومن بنى جنسِه ، وتحولَ الزعيم إلى إبراهيم بك فى الشرقيةِ ، لعله يجدُ عنده شيئاً من الأملِ فى الدفاعِ عن مصر ، ولكنه وجده كزميلِه مراد بك ، يستعدُّ للهربِ .. عندئذٍ فكر البطلُ الساخرُ الحزين ، فرأى أن يرتحلَ إلى سوريَةَ ، لعله يجدُ فرصةً تعينُه أن يعودَ ، فيحاربَ نابليون ، ويجليَه عن وطنِه .

وهناك نزل بمدينة « يافا » ، وظل بها يرصدُ الأحداثَ ، ولكن الأمورَ تعقدت فى عينيه ، فبدلًا من أن تُتاحَ له فرصةُ العودَةِ إلى مصرَ ، لينقضَّ[3] على « نابليون » بقوةٍ تروِّعُه[4] .. بدلا من ذلك زحف « نابليون » إلى الشامِ ليستولىَ عليها ، ونزل « يافا » ، وهناك التقى البطلُ الفرنسىُّ والزعيمُ المصرى ، ودار بينهما حوارٌ ، أراد به نابليون أن يشدَّ البطلَ إلى صفِّه ، ويكسِبَ ودَّه وتقديرَه ، وذلك بإعادتِه إلى وطنِه معزَّزاً مكرَّماً .. وأراد به البطلُ أن يعودَ ليعملَ على تطهيرِ أرض مصرَ من هذا الجبارِ الفرنسىِّ الذى رماها القدرُ به وبجيشِه .

---

(١) البيرق : علَمٌ كبير . (٢) يرصد : يرقب .
(٣) ينقض عليه : يهجم عليه هجوما خاطفا . (٤) تروعه : تخيفه وتفزعه .

(٥)

الزعيم الشعبى يقود ثورة الشعب

كانت عودةُ البطلِ إلى وطنِه فى السابعِ من يوليه سنة ١٧٩٩ ، ولم تكن عودةً هادئة أو هانئة ، ولكنها هيأت له فترةَ السكونِ التى تسبقُ العاصفة .

فى هذه الفترةِ كان يقضى أكثرَ وقتِه فى دارِه ، يحسَبُ من يراه أنه أوَى إلى واحةٍ ، يرتاحُ فيها من عناءِ النضال وجحيمِه ، ولكنه لم يعرف الراحة ، ولم يقرَّ له قرارٌ ، بل كان كالمرجلِ الذى يغلى داخلُه ويحتدمُ[١] ويؤذنُ بالانفجار ، على حين يكتمُ غطاؤُه ما يجرى فيه ، فينخدعُ الناسُ بظاهرِه عما يدورُ فى أعماقِه .

ومرت الأيامُ بالزعيم ، وهو فى كلِّ لحظةٍ من لحظاتِها بين تأمُّلٍ وتفكيرٍ وتقدير .. كان يتأمل فى حالِ الفرنسيين ، فيغبطُهم[٢] لما وصلوا إليه من تقدمٍ علميٍّ وعسكريٍّ وإداريٍّ ، ويتأمل فى حالِ قومِه فيرى أن الحكمَ التركيَّ قد قبرَ أبناءَ وطنِه ، وقتل فيهم نزعاتِ الطموحِ والتعمق والإبداع .. وكان يفكرُ فى القائمين على أمر هذا الحكمِ ، ابتداءً من الخليفة حتى أدنى جنديٍّ من جنودِه ، فيرى فيهم عصابةً شريرةً ، اتخذت من الدين قناعاً ؛ لتخدعَ به الناس ، وتحوِّلَ أنظارَهم عن مآثمِها[٣] ومفاسدِها ، أما المماليك فقط سقطوا من عينيه أشنعَ سقطةٍ حين تخلَّوْا عن فروسيَّتِهم المزعومةِ ، وهربوا من الميدانِ ، يحملون ثرَوَاتِهم وكنوزَهم التى جمعوها من دماءِ الشعب المكدودِ[٤] المسحوق .

ولم يفقد الأملَ بعد ذلك كلِّه ... ولكنه وجد لهذا الأملِ مصدراً ومقرًّا

(١) يحتدم : يتحرك ويفور .

(٢) يغبطهم : يحسدهم .

(٣) مآثمها : ذنوبها .

(٤) المكدود : المتعب .

واحدا ، هو الشعبُ ، والشعب دونَ غيرِه ؛ ولهذا بات يحلُمُ بانتفاضةٍ ثانية له على نابليونَ ورجالِه ، أقوى من انتفاضتِه عليهم فى ثورةِ القاهرةِ الأولى التى قام بها فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٧٩٨

وخطط الزعيمُ البطل لهذه الثورةِ ، فراح يعملُ بأقصى قوةٍ وفى أشدِّ سرعةٍ لإثارةِ أبناءِ الشعبِ الأحرارِ الأطهارِ على الغاصبين الغاشمين ، كما راح يحوطُ هذا العملَ بسياجٍ(١) من الكتمانِ سميكٍ كثيفٍ ، حتى لا تتسرب أخبارُه ، فينتهىَ بالإخفاقِ(٢) ، وتنقلِبَ أخطارُه على القائمين به ، وبلغ حِرصُه غايتَه فى إخفائِه عن أذنابِ نابليون من الشيوخ الذين خدعهم واشترى ضمائرَهم ، فأصبحوا له كالجواسيسِ على بلادِهم .

واختار الزعيم لثورةِ الشعب الثانية على أعدائِه توقيتاً يدل على ذكاءٍ ودهاء ؛ فقد انتهز فرصةَ رحيلِ نابليون إلى فرنسا فجأةً ، بعد أن تألَّبت(٣) عليها بعضُ الدول الأوربية وتهدَّدَها الخطرُ ، وفرصةَ دخولِ « كليبر » القائد الذى خلفَه فى حروبٍ عنيفة مع الأتراكِ العثمانيين ، كانت لها مواقعُها الضاربة فى « المطرية » و « عين شمس » ، وغيرهما على أطرافِ القاهرة .

وفى الحادى والعشرين من مارس سنة ١٨٠٠ نادى البطلُ بالثورةِ ، ونادى بها معه نفرٌ من صَحْبِه المخلِصين ، وظهرت الشرارةُ الأولى لهذه الثورة فى بولاق ، ثم امتدت إلى أنحاءِ العاصِمةِ ، فَشَمِلت أحياءَها كلَّها .

وكانت ثورةً عارمةً(٤) ، شارك فيها الشيوخُ والشبابُ ، والرجالُ والنساءُ ، والمثقفون وعامَّةُ الناس ، وخرجت فيها القاهرةُ كلُّ القاهرةِ ، لتحمِلَ السلاحَ ضدَّ المعتدين ، ومما أثارَ العجبَ ما أظهرَه الشعبُ فيها من مقدرةٍ فائقةٍ على

---

(١) سياج : سور من شجر ونحوه .
(٢) الإخفاق : عدم النجاح .
(٣) تألبت : تجمعت .
(٤) عارمة : شديدة حادة .

التحدِّى ؛ فقد أُنشِئ فى أربع وعشرين ساعةً ، كما يقول المؤرخون ، معملٌ للبارود ، ومعملٌ لإصلاحِ الأسلحةِ وآلاتِ الحربِ ، وثالثٌ لصنعِ القنابلِ وصبِّ المدافعِ ، جُمِعَ له الحديدُ من المساجِدِ والحوانيتِ ، وتطوَّع الصناعُ للعملِ به ، وقدَّموا له ما لديهم من حديدِ الآلاتِ والموازين ، واستخرجوا المدافعَ التى كانت مطمورةً[1] فى بيوت الأمراءِ والمماليك ، فأعادوها إلى العملِ .. وقد بلغ ارتفاعُ بعضِ المتاريس التى أقامها المجاهدون اثنى عشرَ مترا ، وتناسى من بقى من المماليك فى القاهرة صلَفَهم[2] ، وما بينهم من خلافٍ ، ووقفوا مع المصريين صفًّا واحدًا لقتال العدوّ .

ذُعِرَ الفرنسيون ، وأدركوا أن شعب مصر كلَّه قد تحرك ، وأنه أعظمُ من أن يَذِلَّ ، وأصلبُ من أن يلينَ ، وبدا لهم أن بقاءَهم الدائمَ بها ضربٌ من المستحيلِ ، وأن رحيلَهم عنها أصبحَ أمراً محتوماً ، وإن تأخرَ وقتاً ما .

وتفجَّرَ الموقفُ ، وتحولت القاهرةُ قطعةً من الجحيم .. الثوارُ يهجمون كالأسودِ على حصونِ الجيش الفرنسيِّ ؛ ليمزقُوا مَن بها ، ويزحفون كالسيلِ على المعسكرِ العام لقيادتِه بقصر الألفى بالأزبكية ؛ ليكتسحوه اكتساحاً .. وإذ ذاك يسقط كثيرٌ من الفرنسيين قتلَى ، بقذائِفِ المدافع والبنادقِ ، وضرباتِ الرماحِ والسيوفِ ، ووطءِ أقدام الجموعِ الحاشدة ، والزعيمُ بين الثوارِ ، يوجهُ ، ويخططُ ، ويذكِى الحماسةَ ، ويتنقلُ من موقعٍ إلى موقعٍ ، والآمال فى النصر تنير الطريق ، وتملأ القلوب .

عند ذلك يسارع الفرنسيون إلى حصونِهم فيلفُّون القاهرةَ بنيرانِ المدافعِ العاتيةِ المدمرةِ التى لا تبطئ ولا تتوقفُ ... وتمر الأيامُ ، فتزيدُ على الشهرِ ،

(١) مطمورة : مدفونة .

(٢) صلفهم : زهوهم .

والقاهرةُ تحترقُ بحُمَمِ[1] النيرانِ التى صبَّها البركانُ الفرنسيُّ عليها .. وأخيرا خمدت مقاومتُها ، واستسلمت للقوةِ الغاشمةِ العاديَةِ ، ولكن هذه الثورة لقنت[2] الحملةَ الفَرنسيةَ درساً قاسياً ، اهتزت بَعدَه ، وباتت تتوقعُ نهايتَها القريبة ... وتوارى الزعيم السيد عمر مكرم فترةً ؛ ليجمعَ قوتَه ، ويعاودَ النضالَ مرةً أخرى ، وهو أبعد ما يكون عن أن ييئسَ أو يتحطمَ قلبه .

(١) (١) الحمم : قطع النيران التى يقذف بها البركان .
(٢) لقنت : علّمت .

(٦)

نهاية الحملة الفرنسية

كان الجنودُ الفرنسيون يرقصون ويغنون ؛ احتفالًا بما ارتكبوا من وحشيةٍ في إخمادِ ثورةِ القاهرة الثانية .

لقد دكُّوا بعضَ الأحياءِ ، وهدَّموا الكثيرَ من المنازل ، وأغلقوا المخابزَ والمطاعم ، وضيقُوا الحصارَ على أهلِ القاهرة ، فمنعوا عنهم الطعامَ والشرابَ ، وألجئوهم أن يناموا فى العراءِ بعد هدمِ بيوتِهم ، وكان المنظرُ أليما ... جرحى يئِنُّون ، ومصابون تنزِفُ دماؤُهم ، ونساءٌ وأطفالٌ لا ينقطعُ صراخُهم من الخوفِ والجوعِ ورهبةِ الموت التى تطاردُهم أشباحُه هنا وهناك .

ومرت أيامٌ وضجة الاحتفالاتِ لا تهدأ .. ولكن هذه الضجة لم تطُلْ ؛ فقد توقف الرقصُ ، وانقطعَ الغناءُ ، وزاغت الأبصارُ ، وهى تتلقى النبأَ الأليم .. قُتِلَ كليبر ! قُتِلَ كليبر ! قُتِل كبيرُ العسكريين الفرنسيين ، وخليفةُ نابليون فى قيادةِ الحملةِ الفَرَنسيةِ على مصرَ !

انبرى له فتًى أزهرِيٌّ ، قدِمَ من غَزَّةَ ، ليعاوِدَ دراستَه بالأزهر ، هو سليمانُ الحلبيُّ ، وكان الفتى قد سَمِعَ الأنباءَ المروعة(١) عن القاهرة ، وما حلَّ بها على أيدى الفرنسيين ، فصمم أن يفعلَ شيئاً ، وسارعَ إلى قافلةٍ تحمل دخاناً وصابوناً ، على أهبة(٢) السفر إليها ، فرَكِب مع القافلةِ ، حتى حطت رحالَها على مشارفِها فى منتَصفِ مايو سنة ١٨٠٠

ودخل المدينةَ الحزينة ، ومشى هائماً بين شوارِعها وخرائبِها ، حتى بلغَ

---

(١) المروعة : المفزعة .　　(٢) أهبة : استعداد .

الأزهر ، فأَوَى إليه ، وأقام به فترةً قصيرةً ، يفكرُ كيف ينتقمُ من الفرنسيين ، ولم يجد ضربةً لهم أقسى من قتلِ قائدِهم وكبيرِهم كليبر .

وفى الرابعَ عشرَ من يونيه سنة ١٨٠٠ ، وفى الساعةِ الثانيةِ بعد الظهر كان سليمانُ الحلبيُّ قد انسلَّ إلى قصرِ الألفِى بالأزبكية حيث يقيم « كليبر » ، وتوارى عن أعين الحراسِ خلفَ ساقيةٍ به ... وكان المهندسون يعرضون على « كليبر » قائدِ الحملةِ ما وضعوا من رسومٍ لتنفيذِ الإصلاحاتِ التى يريدها لهذا القطرِ ؛ حتى يتحولَ جنةً صالحةً لمُقامِه فيه .

وراح القائدُ ينظر فى الرسومِ ، وهو غارقٌ فى أحلامِه الورديَّةِ عن أيامِه التى يتوهمُ أنه سيقضيها فى هذا القصر ، وفجأةً انقضَّ سليمانُ الحلبىُّ كالنَّسْرِ الكاسِرِ عليه ، وأخمَدَ خنجَرَه فى ظَهرِه ، فسقط مضرجاً[1] بدمائِه .

اضطرب الفرنسيون ، وأصبح قوادُهم يتوقعون الموتَ بين لحظةٍ وأخرى ، فى حربٍ ظاهرةٍ ، أو بأيدٍ تعمل فى الخفاء .. ومع الخوفِ الذى تحولَ إلى صفوفِهم صار الأمرُ فيهم إلى الجنرال « مينو » الذى تولَّى قيادةَ الحملةِ بعد « كليبر » . وكان قائداً مهزوزاً ، حاول أن يتقربَ من الساخطين عليه ، فخادعَهم بإعلانِ إسلامِه ، وبالزواجِ من مسلمة ، وتسميةِ نفسِه عبد الله ، ولكن العواصفَ كانت تهدده من كلِّ مكان ، وكان أضعفَ من أن يقفَ لها ، أو يثبتَ أمامَها .

المصريون لم يحنُوا رءوسَهم بعد ثورة القاهرة الثانية ، بل زادتهم هذه الثورةُ جرأةً على الفرنسيين ، ورغبةً فى الانتقامِ منهم . الأتراكُ العثمانيون نادمون على إهمالِهم فى الدفاعِ عن مصرَ ، يُعدُّون الجيوشَ لاستعادتِها . الإنجليزُ يرَوْنَ أنهم تركوا الفرصةَ للفرنسيين ، فاحتلُّوا موقعاً قتَّالاً ، وأصبحوا خطراً على تجارتِهم

---

(١) مضرجا : ملطخاً .



سليمان الحلبى يغمد خنجره فى ظهر كليبر
لينفذ إلى قلبه

وحياتهم ، كلُّ عربيٍّ مسلم يترقبُ فى إشفاقٍ ما يحِلُّ بسليمانَ الحلبيِّ المجاهِدِ فى سبيلِ الله وفى سبيلِ العروبةِ .

وكانت عاقبةُ الفتى الحلبيِّ أليمةً ؛ فقد حُكِمَ عليه بأن تُحْرَقَ يدُهُ اليُمنَى ، ثم يوضعَ فوق « خازوق » حتى يموتَ ، وتتركَ جثتُه معلقةً ، تأكلُها الطيور .

وُنفِّذَ الحكمُ الغاشمُ(١) ، فاشتد لهيبُ السخطِ فى القلوبِ ، وعاد الموقفُ ليتفجر ..

وقَدِمت الجيوشُ العثمانيةُ ، فنزلت بجنوبىِّ أبى قير ، وساعَدَها الإنجليزُ ، وعاونَها المصريون الذين رأَوْا أن يضربوا الأجانبَ الدخلاءَ بعضَهم ببعض ، فينضموا إلى الأتراكِ حتى يُخرجُوا الفرنسيين ، ثم يعودوا فيطردُوا هؤلاء الأتراكَ من بلادِهم .

ونجحت الخطة ..

وهُزِمَ الفرنسيون ، وتراجعوا فى أبى قير ، فلاحقتْهم الهزيمةُ فى الرَّحمانيةِ والقاهرة ... وأخيراً ، وبعدَ أن تحرجَ الموقفُ ، أخذوا يغادرون مصرَ فى أول سبتمبر سنة ١٨٠١ .. وعزفت موسيقاهم لحنَ الوداعِ الحزين بعد أن استقبلتهم فى مصر بألحانِ الفرحةِ ودَوِىِّ النصر ، وكانت مدةُ إقامتِهم بها ثلاثَ سنواتٍ وثلاثةَ أشهر .

وقبل أن يغادروها لملموا ما بقى من أسلحتِهم وعتادِهم(٢) ، وجمعوا وثائقَهم وأبحاثَهم ، وأسرعوا إلى مقبرةِ « كليبر » ، فأخرجوا تابوتَه ، وحملوا جثمانَه معهم ، كما حملوا خنجرَ سليمانَ الحلبيِّ الذى يُعرض فى أحد متاحف فرنسا حتى الآن .

---

(١) الغاشم : الظالم .
(٢) عتاد : عدة .

(٧)
صراع القوى على الحكم

عادت الحملةُ الفرنسيةُ من حيث أتت .. وكان لهذه الحملةِ جرائمُها وجرائرُها ؛ فقد قتَّلَتْ ، وشرَّدَت ، واعتدَت على الأموالِ والأنفسِ والأعراضِ ، وكانت كاذبةً حين زعمت للمصريين أنها جاءت لإنقاذِهم من عسفِ المماليك ؛ فقد انتقلت بهم من ظلمٍ إلى ظلم ، وخلصتهم من حكمٍ فاسدٍ لتقبُرَ حريَّتهم فى ظلِّ لونٍ آخرَ من الحكمِ أقسى وأشدَّ فساداً ، وإن تكن الحملةُ أثبتَت شيئاً فقد أثبتت أن الاستعمارَ هو الاستعمارُ ، وأنه ، فى كلِّ حالٍ ، عسفٌ[1] واستعبادٌ وفساد .. وإن يكن لها فضلٌ على مصرَ ففى أنها أظهرت الأتراك العثمانيين والمماليك على حقيقتِهم ، وأسقطت أقنعتَهم الزائفةَ من على وجوهِهم ..

كان الأتراكُ العثمانيون يزعمون أنهم قوةٌ ضاربةٌ ، لا يجرؤُ على الوقوفِ أمامَها أحد ، ثم ظهر أن دولتَهم قد دخلت طورَ الشيخوخةِ ، بما لها من ضعفٍ وأمراضٍ ونكسات ، وكانوا يتباهَوْن بحمايةِ المسلمين والدفاع عنهم ، ثم هربُوا أمامَ الفرنسيين ، وتركوا لهم مصرَ بغير قلاعٍ ولا حصونٍ ولا خطوطٍ دفاعيةٍ محكمةٍ ، وكانوا يتعالَوْن على المماليكِ ، ويرَوْن فيهم جنوداً خاضعين ، ثم طأطئوا[2] لهم الرءوسَ ، وتركوا لهم الحكمَ الحقيقيَّ فى البلاد .. وكانوا يزعمون أنهم يحكمون باسمِ الله ، وأكثرُ حكمِهم باسمِ الشيطانِ وآثامِه ومثالبِه ..

---

(١) عسف :

(٢) طأطئوا الرءوس : خفضوها .

كذلك أظهرت الحملةُ الفرنسية ضآلةَ(١) المماليك ؛ فقد كانوا يفخرون بأنهم فرسانُ الميادين ، وأبطالُ الحروبِ الذين لا يُشقُّ لهم غبارٌ ، ولا تلحقُهم هزيمة ، ثم هربوا أمامَ الزحفِ الفرنسيِّ كالطيورِ المفزَّعة ، يحملون ما غلا وخفَّ إلى أقاصى الصعيد ، ثم كشفت هذه الحملةُ للشعبِ عن حقيقتِه فبدا له أنه قوةٌ قاهرةٌ ، موجِّهةٌ للأحداثِ ، مؤثرةٌ فيها ، وتبين له أنه وحدَه صاحبُ الحقِّ الشرعيِّ فى حكمِ البلاد والتمتعِ بخيراتِها .

كلُّ ذلك كان يفكرُ فيه كثيرٌ من المصريين ، وفى مقدمتِهم السيد عمر مكرَم الذى عاد ، فظهرَ على مسرحِ الأحداث ، بعد أن بذلَ أقوى الجهودِ للعملِ من وراءِ الستار .

ونظر السيد عمر مكرم ، فوجدَ الخلاف صارخا بين الأتراكِ العثمانيين ، والمماليكِ ، ووجد المؤامراتِ تحاكُ من كلٍّ منهم فى الخفاءِ ، للانتقامِ والاغتيال .. إذ ذاك أخذ يترصَّدُ ويترقبُ ، لا يرضى عن أسلوبِ الاغتيالِ والأيدى السوداء ، ولا تقَرُّ نفسُه ، وهو يرى البلادَ فريسة للهزَّاتِ والاضطرابات ، وإنما يرجو شيئاً واحدا ، هو أن يصيرَ الأمرُ فى مصرَ إلى مصر ، ولكنه يحس أن الوقتَ الملائمَ لهذا التحولِ لم يأتِ بَعدُ ، وأن عليه أن يحركَ الأحداثَ فى هدوءٍ وبحكمة ؛ حتى تأتى به .

وسرعان ما نشِبَ الصراعُ بين الوالى العثمانى ، والمماليك .. الوالى « خِسرو » باشا يرسلُ القوةَ بعد القوةِ إلى الوجهِ القبليِّ لقهر المماليك الذين تمردوا على الخليفة ، وإخضاعِهم لسلطانِه ، والمماليكُ يحاربون قواتِه ، ويلجئونَهم إلى التخاذلِ والتراجع ، وفى غمار هذا الصراع يثورُ جندُ الأتراكِ على « خسرو » ، ويطالبونَه بمرتباتِهم ، فيعجز ، فيطردونه من الحكمِ ، ويأتون

(١) ضآلة المماليك : حقارتهم .

بـ « طاهر » باشا والياً بدله ، ولكنه يعجز أيضا ويُقتَل ، وعند ذلك تحتدمُ العداوةُ بين طوائِف الجنودِ ، وتدورُ بينهم المعاركُ فى مختلِف الميادين ، ظاهرةً أو فى الخفاءِ .

* * *

هنا يظهرُ قائدٌ من قوادِ الأتراكِ هو « محمد على » ، فيه ذكاءٌ ، ولَباقةٌ(١) ، وبُعدُ نظر ، وفيه قدرةٌ على الوصولِ إلى مأْرَبه(٢) ببراعةٍ فذةٍ ، وبعدَ تمهيدٍ مقنعٍ وسليم .

وكان منصبُه فى الجيشِ يلى منصبَ طاهر باشا ، فكان المتوَقَّعُ أن يصنعَ صنيعَه ، فينصبَ نفسَه والياً لمصر ، دون الرجوعِ إلى الخليفةِ فى تركيا ، ولكن نهايةَ طاهر باشا كانت أمامَ عينيه ، فتريَّثَ(٣) ولم يتسرع ، وترك غلطةَ التهوُّر(٤) لمنافسٍ عنيدٍ له ، وهو البرديسى ، وفى الوقتِ نفسِه انتهز مطالبة الجنودِ برواتبِهم ، فحوَّلَهم إليه ، فلجأ « البرديسى » إلى فرض الضرائبِ الجديدة على الشعب العاجزِ المقهور ، فامتنع عليه الشعبُ ، وتمرَّدَ غضبانَ ساخطاً ، وخرجت طوائفُه من الفقراءِ والعامةِ ، ومن الكبارِ والصغارِ ، ومن الرجالِ والنساء ، كما يقولُ المؤرخون : الصغارُ يصرخون وبأيديهم دفوفٌ يضربون عليها ، والنِّسوةُ يندبن ، ويبكين ، ويقلن كلاماً على الأمراءِ ، منه :

« إيش تاخد من تفليسى يا برديسى ؟! » .

وفى غمرةِ هذا الجوِّ المكفهِر(٥) الملبَّدِ بغيوم الأسى والألمِ ، كان محمد على يتوددُ إلى الناسِ ، ويظهِرُ سخطَه على إرهاقِ الشعب ، وتكليفِه من الأعباءِ ما لا يطيق .. ولم يقف عند هذا الحد ، بل استجاب لرغبةِ المصريين فى مهاجمةِ

(١) لباقة : حذق ودقة فهم .
(٢) مأربه : مطلبه .
(٣) تريث : تأنّى .
(٤) التهور : التسرع والطيش .
(٥) المكفهرّ : المظلم المسود .

أمراءِ المماليك ، وعلى رأسِهم « البرديسى » ، وإبراهيم بك زميلُ مراد بك ، واحتلَّ قصورَهما ، وطرد مَن بها من جنود ، وأتباع ، فلاذوا بالهرب .. وزاد محمد على فى التظاهرِ بالحفاظِ على شرعيةِ الحكمِ ، واسترضاءِ السلطانِ ، فأخرج خسرو باشا من سجنِه بالقلعةِ ، وكان « البرديسى » قد ألقاه فى غيابتِه(١) ، ولكن الجنودَ لم يرحبوا بعودةِ « خسرو » باشا ، فاستدعى تركيًّا آخرَ أقربَ إلى قلوبِ الناسِ ، هو أحمد خورشيد باشا ، والى الإسكندرية ، وسلمه زمامَ الولاية على مصرَ فى العشرين من مايو سنة ١٨٠٤

وظهر محمد على بذلك كلِّه ، وكأنَّه رجلٌ ، لا رغبةَ له فى الولايةِ ، ولا همَّ له إلا إقرارُ حكم السلطان وتثبيتُ دعائمِه .

وانتظرَ الناسُ خيراً من « خورشيد » ، ولكنه كان خبيث النية ، سيئ الطويَّة(٢) ، حكم الشعبَ حكماً فرديًّا مستبدًّا ، وجاء ببعض الجنود ليساندوه فى مظالمِه ، ويعينوه على كبتِ المصريين ؛ لئلا يئنُّوا ، أو يصرخُوا بالشكوى أو يتمردُوا على حكمِه الجائر .. واستدار إلى محمد على ؛ لكى يقضىَ عليه ، ويبعدَه عن الحكمِ وعن الناس ، فيخلوَ لهم وجهُه وحدهُ .. وحاولَ ، وحاول ، ولكن الدائرةَ دارت عليه ، فهبَّ الناسُ فى وجهِه ، وأغلقوا المتاجرَ ، وتجمعت جماهيرهم ، وانضم إلى حشودِهم(٣) العلماءُ الذين أضربوا عن إلقاءِ الدروسِ بالأزهر ، واتجهت مسيرتُهم إلى بيت القاضى فى الثانى عشرَ من مايو سنة ١٨٠٥ .. وهناك تعالت هُتافاتُهم :

« يا رب يا متجلِّى ! اهلِك العثمانلى » .

وتكررت الصيحاتُ تنادى بعزل هذا الوالى ، وإقصائِه عن الحكم ،

---

(١) غيابته : ما ستر منه .
(٢) الطوية : السريرة .
(٣) حشودهم : جموعهم .

ولم تصمُت إلا بعد أن انعقد مجلس الشرع ، وسجل مآثمَ(١) الوالى ، استعداداً لخلعه .. وكان الذى أوحى بذلك أو بأكثره هو السيد عمر مكرم .



عمر مكرم والشيخ الشرقاوى
يلبسان محمد على الكرك والقفطان

(١) مآثمَ الوالى : أخطاءه وذنوبه .

(٨)

عمر مكرم ومحمد على

حرَّرَ الشعبُ صحيفةَ اتهامٍ للوالى أحمد خورشيد ، فى يومِ الأحدِ ، الثانىَ عشرَ من مايو سنة ١٨٠٥ ، ولكن تحريرَ هذه الصحيفةِ لم يكفِه ؛ لأن هذا الوالى كان سَمِجاً ، باردَ الإحساسِ ، فظلَّ فى موقعِه ، ولم يأبَهْ[1] بما صنع الشعب ، أو يستجبْ لرغبتِه فى عزْله .

ونظر زعماءُ الشعب ماذا يصنعون ؟ وما الخطوةُ التاليةُ لهذه الخطوة ؟ وكان من الطبيعىِّ أن يتجهوا إلى السيد عمر مكرم ، قلبِ الجماهير الهادى ، وعقلِها المفكر المخطط ! قال له أحدُ الأعيان :

ــ تعرفُ ما صنعنا مع الوالى خورشيد باشا ؟

أجاب :

ــ نعم . أعرف .

رد القائل :

ــ تعبنا من الهُتافِ بعزلِه .

ــ وهل اعتزل ؟

ــ لا . لم يستجبْ !

ــ وماذا يريد الشعب ؟

ــ يريدُ غيرَه .

ــ للشعب ما أراد ، ولكن من يختار ؟

---

(١) لم يأبه : لم يهتم .

ــ نريد رأيك .

ــ الرأى أن يُختارَ من يحسُّ آلامَ الشعب ، فلا يفرض عليه من الضرائبِ ما لا يستطيعُ ، ولا يسلطُ عليه الجندَ ، ولا يعيشُ على الدسائسِ والمؤامراتِ ليحكمَه بالقوةِ الطاغيةِ(١) المستبدة ..

ــ حقا لا نريدُ من يفعلُ مثلَ هذه الجرائمِ كخورشيد باشا .

ــ ومَن تريدون ؟

ــ مَن تريدُه أنت !

تفتحَ قلبُ عمر مكرم ، وأدركَ أن الشعب عرف طريقه ، فقادَ المسيرةَ الضخمةَ من الأعيانِ والمشايخِ إلى بيتِ محمد على ، وهناك تعالى الهُتافُ بسقوطِ خورشيد باشا ، وتقدَّمَ الزعيمُ الشعبيُّ ، ليعبِّر عن إرادةِ الشعب ، وليتحدَّثَ بلسانِه .. فلَقِيَه محمد على بالبشاشةِ والتَّرحاب(٢) ، وسألَهُ :

ــ ماذا يريدُ الشعبُ يا سيد عمر ؟

أجاب :

ــ عزلَ الوالى .

وهناك عادت الهُتافاتُ تنادى بعزلِه ، فصمت محمد على حتى هدأت الجموعُ ، ثم سأل :

ــ ومن يريدُه والياً عليه ؟

قال :

ــ أنت ! أنتَ لا غيرك !

أغضى(٣) محمد على هنيهةً وكأنه يفكر ، ثم قال فى شيء من الدهاء :

(١) الطاغية : المجاوزة لحدودها .
(٢) الترحاب : اللقاء بالبشر والفرحة .
(٣) أغضى : خفض بصره .

ــ أيها السيدُ النقيب ! ابحثْ عن غيرى .

رد عمر مكرم :

ــ بل نختارُك أنت ، ونعرف أنك لن تخيبَ أملَ الشعب فيك ... ولكنه يختارُك بشروط .

سأل :

ــ وماذا يشترطُ الشعب ؟

أجاب :

ــ أن تسيرَ فى حكمِه بالعدلِ ، وألا تفرضَ عليه ضريبةً ، أو تتخذ قراراً من القراراتِ ذات الشأنِ فى حياتِه وما يحمِّل من أعباءٍ إلا بعد الرجوع إلى قادتِه من العلماءِ والمشايخِ والأعيان .

سكت محمد على سكوتَ رضاً واستجابة ، فنهض السيد عمر مكرم ، وأخذ بيدِ الشيخ الشرقاوى ، وقدَّما إليه « الكرك(١) » والقفطان ، رمز الولاية وملبَسِها الرسمى ، فلَبسهما . وكان ذلك يومَ الاثنين الثالثَ عشرَ من مايو سنة ١٨٠٥

* * *

منذ تلك اللحظة أصبح محمد على والياً على مصر ، وكانت ولايتُه عليها مستمدةً من الشعب ، صادرةً بمحض(٢) رضاه واختيارِه .. وكان السيد عمر مكرم يرى أن هذه خطوةٌ كبيرةٌ نحوَ الاستقلالِ الذاتىِّ ، وحكمِ الشعبِ بإرادة الشعب ، كما كان موفَّقاً فى اختيار محمد على لهذه الانتقاليةِ ؛ لما يتوسَّمُه(٣) من حسنِ قيامِه بها ، وما لمسه من ذكائِه وقدراتِه الحربيةِ والقيادية .

ومنذ تلك اللحظةِ أيضاً أصبح السيد عمر مكرم زعيمَ الشعبِ الأولَ ،

(١) الكرك : ملبس خاص يلبس على الصدر .

(٢) محض : خالص . (٣) توسمه : تبينه .

ونائبَه فى الحديثِ باسمه ، والتعبيرِ عن آلامِه وآمالِه ، وكان زعيماً حقا ، جديراً بما أولاه[١] الشعبُ من ثقةٍ ؛ فقد اختار له واليَه الجديد ، ووضعه فى منصبِه ، ثم حاطه بكلِّ ما يكفلُ استقرارَه فى عملِه الذى اختيَرَ له ، فأبلغ خورشيد باشا قرارَ العزلِ ، ولما امتنع حاصره فى القلعةِ ، وأقام حولَها المتاريسَ[٢] والاستِحكاماتِ ، وأشرفَ عليها بنفسِه ، وحاربَ كل من حاولَ رفع هذا الحصارَ عنه ، وما زال بخورشيد باشا حتى فكرَ فى تسليم نفسِه .

وهنا جاء ردُّ السلطان من تركيا على مطلب الشعب .. استجاب لرجائِه ، ونزل على رغبتِه ، فعزلَ خورشيد باشا عن ولايةِ مصر ، وجعل عليها محمد على .. وكان هذا آخرَ العهد بالعصرِ العثمانى وولاته .

وقد جاء « فرمان » السلطان فى التاسع من يوليه سنة ١٨٠٥ ، وغادر خورشيد باشا القلعة فى أغسطس ، وكان يومُ نزولِه منها وصعودُ محمد على فيها من الأيامِ الخالدةِ فى تاريخِ مصر ؛ فقد انقضى فيه عصرٌ وبدأ فيهِ عصرٌ جديد ، وانطوت فيه صفحاتٌ سوداءُ لتُنْشَرَ صفحاتٌ أخرى ، وكان حاملُ الراية فى هذا التحول هو السيد عمر مكرم .

كما كان المنتظرُ أن يحتلَّ هذا الزعيمُ الشعبىُّ أسمى مكانةٍ فى نفس محمد على وأن يظفرَ منه بأقوى مشاعرِ الحب والوفاء ، ولكن الوفاقَ بينَهما لم يستمرَّ طويلا ؛ فقد بدأ المماليكُ وعلى رأسِهم الألفى والبرديسى يتألبون[٣] على الوالى الجديد ، ويستعينون عليه بالإنجليزِ ، الذين فكروا فى أن يحتلُّوا مكانَ الفرنسيين فى مصر ، ولكن القدر عجَّل بموت هذين المملوكين ، بعد أن وقف الشعبُ فى وجهيهما بتوجيهِ زعيمِه ورائدِه السيد عمر مكرم .

وعاود الإنجليزُ المحاولةَ ، فجاءت حملة « فريزر » ، واحتلت الإسكندرية

(١) أولاه : منحه . (٢) المتاريس : المراد حواجز تبنى فى الحرب .

(٣) يتألبون : يجتمعون .

فى مارس سنة ١٨٠٧ ، ثم تقدمت إلى رشيدَ ، فعجّل أهلُها بمقاومتِها ، وهزموها هزيمةً منكَرة .

وبينما تتعرضُ رشيدُ لعدوانهم كان الزعيمُ الشعبىُّ يقودُ الجموعَ إلى بيت محمد على ، ليعرضَ عليه رغبةَ الشعب فى محاربةِ المعتدين والقضّاءِ عليهم ، ولكن الوالى أعرض عنه وعمن معه ، زاعماً أن سياسةَ الدولةِ من شأنِه دون غيره .

ومضت الأيامُ تباعدُ بين الوالى الجديدِ وزعيمِ الشعب ، واحتدَّ(١) الخلاف ... الوالى يريدُ فرض الضرائبِ ليحققَ رجاء السلطان فيه ويظفرَ برضاه عنه ، والزعيمُ يريد الرفقَ بالشعبِ المقهورِ المسحوق .. وتحرجَ الموقفُ فعمل الوالى على أن يؤلبَ الشيوخَ على السيد عمر مكرم ، واجتذبهم إلى جانبِه بمختلف الوسائل : الرفيعِ منها والملتوى الوضيع ، ثم عزلَه عن نقابة الأشراف ، ونفاه من القاهرة إلى دمياط سنة ١٨٠٩ .. فظل بها فترةً ثم نُقِلَ إلى طنطا .. وقضى بها سنواتٍ .

وظنَّ محمد على أن الزعيمَ سيطأطئ رأسَه بعد هذا المنفى ، ويطلبُ الصفحَ عنه ، ولكنه كان أعزَّ من أن يذلَّ ، وأقوى من أن يخضعَ ، فخجِلَ الوالى وأعاده إلى القاهرةِ بعد تسعةِ أعوامٍ عنيفة قاسية ، وكانت دهشتُه بالغة ؛ فقد فُوجِئ بهُتافِ الشعب له ، وتعلقِه الشديد به ، فأغضَى(٢) عنه فترة ، ثم أعاده إلى طنطا منفيًّا ، محروماً من البقاء فى القاهرة ، مُبعَداً عنها فى أبريل عام ١٨٢٢ .. ولم تطل حياتُه فى هذه المرة ، فمات فى ذلك العام ، وصَعِدت روحُه إلى ربها راضيةً بما قدمت من صالحِ العمل ، وبما بذلت من تضحياتٍ فى سبيلِ إعزازِ الوطن ، ودفعِ مسيرتِه على طريقِ الحريةِ والاستقلال .

---

(١) احتد : اشتد .
(٢) أغضى : أغضى عنه ، تركه ولم ينظر إليه .

ختام فى كلمات

عشتَ ساعةً أو أكثرَ مع سيرةِ الزعيمِ الشعبىِّ السيدِ عمر مكرم .. مع مولِده ونشأتِه الأولى بأسيوط ، ومع دراستِه ونشاطِه فى القاهرة ، وصحبتَه نقيباً لأشرافِ مصر جميعاً ، كما صحبتَه مناضلًا يتقدمُ الجموعَ وهو يحملُ « البيرق » النبوىَّ ، علَّه ينهضُ بواجبِه فى ردِّ العدوانِ الفرنسىِّ عن مصر .. ثم تنقلتَ معه وهو فى منفاه الاختيارىِّ بيافا ، وحين رجع إلى القاهرةِ ، ليعملَ من وراءِ الستار ، وأخذتك الدهشةُ وهو يخططُ وينجحُ فى القضاءِ على آخرِ مَعْلمٍ للعصرِ العثمانى ، وفى وضع الخُطا على أول الطريقِ فى العصر الحديث ، ثم شعرت بأشدِّ الأسى لنهايةِ هذا البطلِ الكبير ، ولكنها ، فى كل حال ، نهاية عظيمة ، لبطلٍ عظيم ، ولعل من دروسِ هذه السيرة :

— أن صاحبَها كان عصاميًّا ، صنعَ مستقبلَه بيدِه ، وشقَّ طريقَه فى الحياةِ بكدحِه وكفاحه ، فتحولَ من طفلٍ فى بيت متواضع من بيوتِ أسيوط إلى أرفعِ منزلةٍ بين أشرافِ مصرَ على اختلاف طوائفِهم ، وهى منزلةُ النقيبِ الذى يدينون له جميعاً بالوفاءِ والولاءِ .

— أنه ارتبط منذ مطلَعِ حياتِه بمصرَ وشعبِ مصر ، فوفَى لهما ، ووقف حياتَه على الكفاحِ فى سبيلِهما ، وثبت على مبدئِه ، فلم يهتَزَّ ، أو يتلوَّنْ ، أو يدُرْ مع الأيامِ ، كما يدور غيرُه من أصحابِ الدعواتِ والمبادئ الكاذبة .

— أن نضالَه كان فى فترةٍ قاسيةٍ من فتراتِ التاريخِ المصرىِّ الحالك ؛ بما غشيه من جهلٍ وحرمانٍ ويأس ، ولكن الزعيمَ البطلَ قهر اليأس فى نفسِه ، وحاول قهره فى أصحابِه وفى نفوس الشعب كله .

— أن عظمتَه لم تكن كلاماً ولا وعوداً زائفة ، بل اقترن فيها العملُ بالقول ، وكان جلالُها فى هذا الاقترانِ القويِّ الصادق .

— أنه استطاع بقوةِ الشعب أن يقضيَ على عصرٍ من أحلَكِ العصور ، وأشدِّها طغياناً ، واستبداداً ، وفساداً ، وهذا العصرُ هو عصرُ الأتراكِ العثمانيين .

— أنه وضع الأقدام على أوائلِ عصرٍ جديد ؛ هو العصرُ الحديث ، ومهما يكن من تلوُّنِ محمد عليٍّ وعدم وفائِه له — فقد انتقل الشعبُ بهذا التحول من موقع إلى موقع ، حتى ظَفِرَ بحريتِه الكاملةِ واستقلاله التام .

— أنه كان أبيًّا ، عاليَ الرأس ، لا يعرف الذِّلة ولا الضعةَ .. فلم ينحن أمام نابليون ، ولو فعل لأعطاهُ ما يشاءُ ، ولم يتصاغر أمامَ محمد على ، ولو رضيَ هذه المنزلةَ ما عرفَ طريقه إلى المنفى ، وما قضى شطر حياتِه حبيساً بين المعتقلاتِ .

وستمضى الأيامُ ، ويظهر زعيمٌ بعد زعيمٍ ، ولكن أمثالَ السيد عمر مكرم من الزعماءِ الخالدين أفذاذٌ قليلون .

رقم الإيداع : ١٩٨٩/٥٠٠٩
الترقيم الدولى : ٨ — ٠٥٣٨ — ١١ — ٩٧٧

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

١ ـ حافظ إبراهيم
٢ ـ محمود سامى البارودى
٣ ـ عباس محمود العقاد
٤ ـ أحمد عرابى
٥ ـ طه حسين
٦ ـ مصطفى كامل
٧ ـ سعد زغلول
٨ ـ على مبارك
٩ ـ محمد فريد
١٠ ـ جمال الدين الأفغانى
١١ ـ محمد كريم
١٢ ـ عمر مكرم
١٣ ـ عبد الله النديم
١٤ ـ الإمام محمد عبده

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه